شعر الأطفال بين الفصحى والعامية

أ. جابر بسيوني

شاعر ومحاضر ثقافي

لا بد أن يتمتع شاعر الأطفال في كتابته للنص الشعري بسمات فنية من بينها الوقوف على ما تطلبه المرحلة العمرية للطفل الموجه إليه القصيدة، والإلمام بالحالة النفسية والعضوية لهذه المرحلة، بجانب الوعْى بأهمية اختيار الألفاظ المناسبة للمعاني والأفكار المخاطب بها(١).

ومن بين هذه السمات تأتي القدرة على توظيف اللغة، ونقصد باللغة الوسيلة اللغوية الملائمة لإدراك الطفل ووعْيه، فإذا قصد الشاعر إلى استعمال اللغة العربية الفصحى فعليه اختيار الأبسط منها والأوضح والسهل والمفهوم، والبعد عن الغامض منها، وإذا قصد الشاعر اللجوء إلى التعبير شعرًا بمفردات اللهجة العامية فلا ضرر من ذلك ما دام يجيد توظيف مفرداتها الميسرة المستعملة في حوارنا اليومي، دون ضبابية أو إسفاف ودون ابتذال.

ومن منطلق ما سبق نري أن اللغة الفصحى أو اللهجة العامية ما هي إلا وعاء يصب فيه الشاعر ما يوجهه إلى الأطفال، شريطة أن يلائم مرحلته العمرية وإدراكه العقلي وطبيعة تكوينه.

وسنقدم فيما يلي دراستين في ديوانين: أحدهما باللغة الفصحى، والثاني باللهجة العامية، وكلاهما يحقق ماهية الكتابة للطفل شعرًا .

أولها ديوان: (أغنيات أحبها)، للشاعر محمد عبد الستار الدش.

وثانيهما: ديوان (رمضان كريم)، للشاعر شوقي حجاب.

أولًا – تحقيق ماهية شِعْر الأطفال في ديوان (أغنيات أحبها)

شِعْر الأطفال هذا الشعرُ الموجه للطفل، وهدفه الإمتاع والتسلية والتهذيب والتثقيف، ويختلف عن شعر الكبار في الحجم واللغة واختيار الأوزان الشعرية، فمن المتعارف عليه أن يكون شعر الأطفال أصغر حجمًا في صياغة القصيدة، وأبسط وأيسر وأوضح لغة من حيث المفردات والجمل – وأيضًا – أكثر تأثيرًا موسيقًيا، أي يفضل اختيار مجزوء البحور الخليلية أو أسرعها إيقاعًا مثل المتدارك أو المتقارب أو مجزوء الرمل والرجز.

وقد احتوى الشعر العربي القديم على شِعْرَ الأطفال، أو قدمه كلونٍ شعري متميز أو كغرض شعري مستق[٢]، وقد روت لنا كتب التراث كثيرًا من تلك الأرجاز التي كانت النسوة يتغنين بها لأطفالهن، أو يرقصنهم لها، بل نسبت كتب التراث ذلك في بعض الأحيان للرجال.

وقد روى الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) أن الزبير بن العوام كان يرقص أبنًا له وهو ينشد مرتجزًا متفاخرًا بأنه الذي ينتسب إلى أبي بكر الصديق، رضي الله عنه.

أبيضُ من آل أبي عتيقِ
مباركٌ من ولد الصديقِ
ألدُّه كما ألدّ ريقي

وشاع في كتب التراث أيضًا ذلك الترقيص الذي تغنت به أعرابية:

يا حبَّذا ريح الولدْ

ريح الخزامة في البلد

أهكذا كل ولدْ؟

أم لم يلدْ مثلى أحدْ؟

ويؤكد د. مصطفى رجب في كتابه (صفحات مجهولة من تراثنا الشعري الفكاهي) على أن هذه الألوان السابقة من الشعر يمكن أن تحسبها جذورًا حقيقية لأدب الأطفال في تراثنا العربي.

ولقد تحقّق لشعر الأطفال – في الوقت الحالي – ذيوعًا وانتشارًا بجانب طفرة إيجابية في إبداعه وتنوعه، منذ أن قدّمه (محمد عثمان جلال)، ثم أمير الشعراء أحمد شوقي مرورًا بمحمد الهراوي، ثم أحمد سويلم، وصولًا للدكتور فوزي خضر وأحمد فضل شبلول وعبده الزراع وجابر بسيوني ومحمد عبد الستار الدش، ولمحمد عبد الستار الدش دواوين كثيرة في شعر الأطفال، من بينها ديوان (أغنيات أحبها) الصادر عن المركز القومي لثقافة الطفل، برئاسة محمد عبد الحافظ ناصف، التابع للمجلس الأعلى للثقافة بمصر في ٢٠٢١، ويتضمن سبع قصائد هى: حكاية عصفور، وصديقي، ودعوة للزيارة، ودائمًا أنت بقلبي، والعلم الحديث، وبلادي، وجاء النهر.

وقد أهداه الشاعر إلى كل الأغنيات الجميلة في الحياة، ومنها بعض أغنياتي، ويعد الديوان نموذجًا طيبًا ومثالًا واضحًا لماهية شعر الأطفال في

المرحلة العمرية الأولي من حياتهم، أي منذ الإدراك حتى إتقان الكتابة والقدرة على استيعاب المعاني وترديدها.

وقد أحسن الشاعر اختيار المواضيع المناسبة للأطفال، فتكلَّم عن هذا العصفور الجريح الذي يطلب الماوى والدفء، فيجده عند أصحاب العطاء والمروءة، وهنا يدعونا إلى إغاثة المضطر، وإعانة المحتاج، والوقوف بجانب الضعيف من خلال العصفور رمز البراءة والسلام، وتأمل قوله السهل في مفردات واضحة وجمل موحية بسيطة، وصور شعرية سلسة لا تحتاج إلى تفكير، وأيضًا في وزن شعري يجذب أذن الأطفال، ويسهل ترديده جاء على (مجزوء بحر الكامل): متفاعلن متفاعلن.. متفاعلن متفاعلن:

حَلَّتْ أمام صديقنا عصفورة مجروحةُ

ألوانها طيف السماء وعينها ملهوفةُ

ألقت عليه تحية قالت بصون خائفةْ

هات اسْقني من مائكم وارحم جراحى النازفةْ

إني كما الصبح الذى سوّاه ربى سابحةْ

لم أسترح في رحلتى خلفي طيور جارحةْ

وقد اتبع الشاعر في صياغة القصيدة السمات الفنية للقصة الشعرية من حيث تتابع الأحداث والتشويق وعرّض الشخوص وأفكاره، ثم يستطرد موضحا موقف المستجيب لطلب العصفورة الجريحة بقوله:

قال: اطمئني، واهدئي فالدار دارك فاسعدي

لو تقبلين إقامة عندى سأسعد في غدي

قالت: سيبقى فضلكم ديْنًا، ولي حرِّيتي

هذا الفضاء حديقتي أسعى لأكسب لقمتي

فإذا تعبت فراحتي فوق الغصون الحانية

يأتي الصحاب يضمنا لحنٌ كماء الساقيةَ

ويحسب للشاعر في تغييره المحمود للروي والقافية بعد كل يتبين؛ لشد الانتباه وتبديد الرتابة والملل، ولأن هذا الشكل هو الأوفر في مخاطبة الطفل شعرًا، خاصة إذا تضمن قصة أو حكاية.

ونؤكد على نجاح الشاعر في نسج صور شعرية ملائمة لخيال الأطفال واستيعابهم، مثل:

ألوانها طيف السماء وعينها ملهوفة

وإذا تعبت فراحتي فوق الغصون الحانية

ويأتي الصحاب يضمنا لحن كماء الساقيةْ

ونجد له أيضًا أن المفردات كلها جاءت سهلة المعاني واضحة الدلالة، وهو ما التزم به في قصيدته (صديقي)، إلا أنها لم تتبع السرد القصصي، وجاءت على لسان طفل، يعبّر عن رأيه وتصوره للصديق، فيقول:

صديقى من يشاركنى مسراتى وأحزاني

أصاحبه يصاحبني ويحيا بين وجداني

أخاصمه يصالحني يقابلنى بأحضان

يعاتبنى أعاتبه كلانا يشكر الثاني

وقد لجأ من حيث الموسيقا إلى مجزوء بحر الوافر، وهو أنسب لتوجيه الخطاب لبدء تفعيلاتها بالأوتاد التي تسمح للمتحدث أن يسترسل بصوت واضح قوى (مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن).

كما أنه أحسن ختام القصيدة بحكمة بسيطة، يدركها الأطفال ويسهل فهمها فالصديق مرآة صديقه، وهو في عونه وعند حاجته:

يصارحنى أصارحه ويطلبني فيلقاني

فيبصرني فأبصره كمرآةٍ لإنسانِ

ثم يقدم النشيد في (دعوة للزيارة)، ويدعو فيه الرفاق إلى زيارة المكتبة بالمنزل فهي تنمية للعقل وتغذية للروح وترويح للفلب، أو يدعم ذلك الحُب الذي يملأ البيت، ويرعى الأهل، ويروي الصحاب، ويرضي الروح.

والدعوة للرفاق ممتدة للزيارة، فالباب مفتوح، وفي هذا السلوك إرضاء لله خالقنا الذي يرضى مودتنا، وقد أحسن استعمل الإيقاع الموسيقي الملائم للنشيد الذي جاء على أربعة مقاطع تنتهي بروي واحد هو الحاء المضمومة بعد أربعة

أسطر على وزن (مستفعلن فعْلن أو مستفعلن فعِلن)، وهو ما يشد انتباه الطفل ويجذب أذنه، ويسهل معه حفظ النشيد وترديده، وتأمل قوله في هذا المقطع:

في بيتنا كتبٌ.. للعقل تنمية للروح تغذية.. للقلب ترويحُ

وينوعُ البحرَ الشعري في قصيدة (دائما أنت بقلبي) فيلجأ إلى مجزوء بحر الرمل (فاعلاتن فاعلاتن.. فاعلاتن فاعلاتن..)، وفيه يسبح الله الخالق الأعظم ويبتهل إليه، ويعمق في نفوس أطفالنا التعاليم الدينية والقيم الإنسانية التي تحمد الله وتشكره:

كلما غنَّت طيورٌ ثم طارت في السماءْ

ويمد الأفق جميلًا بأزاهير الضياءْ

قلت سبْحانك ربي

دائما أنت بقلبي

فالاستهلال بصورة شعرية جلية جميلة تعكس غناء الطيور مع طيرانها في السماء، والأفق الجميل والأزهار المضيئة، وهنا يسبح الله ولشكر نعمته، وفي هذا الإرشاد ما يتناسب مع ماهية الكتابة للطفل عمومًا، فلا بد أن نغرس في نفسه قيم البراءة وتعاليم الحْمد والشكر لله بجانب سعينا الحثيث لإبراز مواطن الجمال والجلال في الكون أمام عينيه وفي وجدانه.

وفي قصيدته (العِلم الحديث) يوجّهُ الطفل نحو الحرص على متابعة الجديد في العِلم والتعرف على حديث العلوم، وانتهاج كل سبيل نحو سعة المعرفة ووفرة المعلومات، مؤكدًا أن الله– تعالي– قد أكد ذلك في الآية الكريمة

{اقرأ} بسورة العلق، وهى دعوة للمثابرة على الاطلاع، والسعْى إلى المعرفة والحرص على زيادة العلم، والطفل أولى بغرس هذا في نفسه منذ الصغر، وتأمل قوله:

أحبُّ الكمبيوتر وأقرأ العلوم
ربى قد قال: اقرأ لنحيا كالنجومْ

ويعتمد في موسيقى هذه القصيدة على مستفعلن وزحافها، فتصبح (متفعلن أو فعولن أو مفعولن)، ويستطرد في ذكر مآثر العلمْ والعلوم، وتطوْر أشكالها.

وعلى وزن بحر المتقارب المجزوء (فعولن فعولن.. فعولن فعولن) يشيد ببلده، ويمدحها ويعمق صور الانتماء إليها، ويعبر عن حُبِّه الجم لها، فيقول في قصيدة بلادي:

دوامًا أنادي بلادي بلادي
تضميِّن بيتي وزرعي، فؤادي
وزوجَ حماَمي ونبع الودادِ
تضمين أختي وأمي تنادي
التي نداها بكل اجتهادِ
تضمين حُلمي وجدي وعّمَي
أبي مثل نور يبدد همي
أنا في الحياة أسابقُ نجمي
وأرنو لشمسكِ يشتد عزمي
وماؤك يروي عقولًا، زيومي

ثم تأتي أنشودة (جاء النهر) بمثابة فرحة يغنيها الأطفال لقدوم النهر بالخير الوفير والنماء والرواء، وينجح الشاعر في استهلاله لها بتكرار جملة: جاء النهر.. جاء النهر لتأكيد الفرحة، وإذاعة السعادة والسرور لمقدم هذا النهر بما يحمل من خيرات، وهو ما يرسخ في وجدان أطفالنا ما للنهر من مآثر طيبة وشمائل متميزة، وفوائد تؤكد لنا نعمة الخالق علينا بأن خلق لنا النهر، ومنحنا عطاءه وبركته، وقد أحسن الشاعر استعمال بحر المتدارك في صورته:

فعلن فعلن فعلن فعلن فعلن فعلن فعلن فعلن

وتأمل قوله:

جاء النهر، جاء النهر
بالخير الوافر ينتشرُ
جـاء إلـينا يا أحـبائي يا أهلي وناسي وأصحابي
يحمل ثمرًا، يحمل سمكًا يحمل زهـرًا فـيه عطر

ولعلنا قد استعرضنا في إيجاز ديوان (أغنيات أحبها) من خلال القصائد السبع المذكورة التي تنوعت أفكارها ومضامنها الموجهة للأطفال في إيقاعات موسيقية متباينة مناسبة للمتلقي لدى الطفل، ذات صور شعرية واضحة مؤكدة للمعاني ومحققة لأهداف القصائد، ومبنية لماهية الشعر المكتوب للطفل، وقد أحببنا جميعًا هذه الأغنيات كما أحبها مبدعها الشاعر محمد عبد الستار الدش، وفقه الله لمزيد من الإبداع والتألق.

ثانيًا – أجمل المعاني في شكل الأغاني في ديوان (رمضان كريم) للشاعر شوقي حجاب:

ضمن سلسلة كتاب قطر الندي، برئاسة تحرير د. زينب العسال صدر ديوان شعر العامية للأطفال (رمضان كريم)، للشاعر شوقي حجاب في ٢٠١٠، وفيه يقدم أركان الإسلام الخمسة: الشهادتين، والصلاة، وصوم رمضان، والزكاة، والحج، وأضاف أدعية وابتهالات لله سبحانه وتعالي، وكلها في أشكال غنائية باللهجة العامية المبسطة الواضحة، وأحسن اختيار الألفاظ السهلة الدالة على المعنى، واعتمد على القوافي ذات الرويِّ اللافت الموسيقا، لجذبِ أذن الأطفال في المرحلة العمرية الأولى لهم.

ويتسم شوقي حجاب بقدرته الفائقة على اختيار ما يناسب الطفل من الشعر، وتيسير المفردات وتوظيفها بما يناسب ذائقة الأطفال وعقولهم، بجانب نجاحه في توجيه الخطاب الشعري للطفل، بما لا نجد معه أي شعور بالتعمد أو القصد، فيبدو السياق الشعري تلقائيًا صادقًا، وهذا ما تؤكده من خلال الأمثلة التالية الواردة بالديوان، فيقول في فروض الإسلام (نطق الشهادتين) صفحة ٣:

"أشهد أن لا إله إلا الله..
وأشهد أن رسول الله..
سيدنا محمد..
صل الله عليه وسلم"

وبهذا الاستهلال الذي يتفق فيه مع الأطفال على نطق الشهادتين نجده قد بنى جسرًا من التواصل مع نفوسهم، وشعر بارتياح المتلقي لما سوف يقول لهم، وهو ما تحقق في الصلاة.. ص ٤ بالديوان:

"شفتوا إيه حصل لي
لمَّا جيت أصلى؟!
نور الله وصل لى
والخير اتفصَّل لى
قام شفت الحصَا اللى
في عيون الشيطان"

ثم يستطرد: "شفتوا إيه حصل لي!

وندرك فهْم شوقي حجاب لنفسية الطفل من خلال الدخول للموضوع باستفسار وتساؤل دون شرح أو تمهيد، وهي طبيعية الحوار مع الطفل الذي لا يستطيع الاستماع إلى مبررات أو مقدمات، ونشعر أيضًا بالموسيقى الظاهرة وغير الظاهرة الملائمة لأذن الطفل والإيقاع الموسيقي من الحبب (فعلن فعلن فعلن فعلن)، والقافية ذات الروي اللام المكسورة التي يميل المتلقي لاستماعها، والمعنى الكاشف للصلاة وما وراءه بما يتفق مع إدراك الطفل، والصلاة تصل به إلى نور الله ومعه الخير وينهزم الشيطان، ثم يختتم بما بدأ من تساؤل مدهش:

"شفتوا إيه حصل لي؟.

وهو ما يتماشى مع طبيعة الأطفال في التلقي[٤].

وعن صوم رمضان يكرر التساؤل مع الأطفال:

"شفتوا إيه حصل لي؟
لما جيت أصوم؟!
شفت الأكل كوم
بيبرطم يزوم..
ويقول: كُلني كلني!!
وأنا أقول: إيه لزوم.. شبعان تملِّي
والفقير جعان؟
شفتوا إيه حصل لي"

وهنا يكشف للطفل عن فائدة الصوم وأهميته، ويشعره بحاجة الفقراء للطعام، وضرورة أن نلتفت إليهم ونشعر بهم، ونقدم لهم العون والمساعدة، ويستمر في الاعتماد على الإيقاع الموسيقي الجذاب المشوِّق والرويِّ المتنوع؛ لتبديد الملل، وتجديد الإحساس بالمعاني والأفكار، ثم يختتم بالجملة الرابطة في الحوار:

شفتوا إيه حصل لي؟!

وهي ما تشكل دائرة متصلة مع الأطفال(٥)

وعن الزكاة يستطرد بالجملة نفسها:

"شفتوا إيه حصل لي"
لما جيت أزكيِّ؟!
كان الحال يبكِّي

بس الفقرا ضحكوا
والسكّر في كحكُه
بيغني ويحكي
ع اللي بيدوا غيرهم
من خيرهم وع اللي
ربنا ساترهم
كل ما يدّوا أكتر
يلقوا الخير بيكتر
ومقامهم يعلّي!!
مهما الحال يمرَّر
الزكاة تحلِّى!!
شفتوا إيه حصل لي"

وينجح شوقي حجاب في تبسيط معني الزكاة للأطفال، ويجيد اختيار المفردات باللهجة العامية فنجد الأطفال في حالة معايشة ومشاركة واستقبال لما يقول، ثم يستكمل فروض الإسلام بالركن الخامس في الإسلام، وهو حج البيت، ويلتزم بالاستهلال: شفتوا إيه حصل لي، وكأنه يدعو الطفل لقول "إيه حصل لك؟ فيجيب:

"لما جيت أحج
كل ما أطوف حوالي
الكعبة.. بِوِج
نور الله يلالي

والشيطان بِهِج
أعلا في العلالي
ولا عمري اتحِوِج
غير للي ملاني
قلبي بالإيمان"

ويختتم دون ذكر: "شفتوا إيه حصل لي"؛ لأنه قد استكمل الأركان الخمسة في الإسلام، واختتمها بكلمة الإيمان.

وفيما سبق نجد وعْي شوقي حجاب بحاجة الأطفال إلى توضيح الأفكار وتبسيطها، ووضعها في أطر برّاقة جذابة يستطيع معها الطفل أن يفهمها، وأن يرددها خاصة إذا كانت في شكل الأغاني ذات الحروف الممدودة التي تتيح للأطفال أداءها صوتيًا، وأيضًا حفظها بسهولة ويسر.

ويستكمل شوقي حجاب ديوانه (رمضان كريم) بابتهالات وأدعية جميلة ميسرة سهلة يستطيع الأطفال أن يستحسنوها ويحفظونها، بجانب أنها تساعدهم على كيفية الدعاء لله سبحانه وتعالي ومخاطبته، وتأمل قوله في يارب يا ربنا ص ١٤ بالديوان:

"يا رب يا ربنا
من كتر ما بتحبنا
خلقت لينا كل شيء
وسكنت جوّا قلبنا
يا رب يا ربنا"

جاء الدعاء في شكل أغنية، ويحمل مصداقية الخطاب ومراعاة سن المخاطب به، ومرحلته العمرية من خلال لهجة عامية مصرية واضحة، وهي سمات فنية يتسم بها الشاعر الكبير شوقي حجاب الذي يعد من أقدر الشعراء على مخاطبة الأطفال شعرًا، ومن أكثر تأثيرًا في نفوسهم، ولنا في دواوينه الأخرى للأطفال ما يؤكد قولنا ويثري مكتبة أطفالنا الشعرية.

ومما تقدم يتأكد لنا ضرورة أن يتمتع الشاعر في كتابته شِعرَ الأطفال بالإلمام بالوسيلة المعبّر بها لغة أو لهجة، وأهمية اختيار المفردات والألفاظ المناسبة الميسرة التي يسهل استيعابها، ويتيسر فهمها، ولا حاجة معها لقاموس يوضحها أو إلى شارح يجليها، ولا بد أن تتناسب مع المرحلة العمرية للأطفال، حتى تؤثر فيهم، وتثبت في أذهانهم، ويقدرون على ترديدها والرجوع إليها، وهو ما يحقق بقاءها في نفوسهم، ودوامها في عقولهم.

الهوامش:

(١) شعر الأطفال "أحمد شوقي نموذجا"، أحمد سويلم، ضمن كتاب الإبداع الأدبي للطفل، يسطرون للقراءة والنشر، ٢٠١٥.

(٢) من تراثنا الشعري الفكاهي، د. مصطفى رجب، دار العلم والإيمان، ط١، صفحات مجهولة، ٢٠٠٧.

(٣) طفلك يا سيدتي، كتاب الشعب رقم ١٠١ الصادر في ١٩٦٠.

(٤) الخطاب الأدبي والطفولة، د. أحمد زلط سنة ٢٠٠٨، ص ٢١٣

المصادر:

- ديوان: (أغنيات أحبها)، لمحمد عبد الستار الدش، الصادر عن المركز القومى للطفل في ٢٠٢١.
- ديوان: (رمضان كريم)، لشوقي حجاب، الصادر ضمن سلسلة (قطر الندي) في ٢٠١٠

المراجع:

- من تراثنا الشعري الفكاهي.
- هل عرف أجدادنا أدب الأطفال، مصطفى رجب، ، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط٢٠٠٧، ص٢٥١.
- شعر الأطفال: أحمد شوقي نموذجًا، لأحمد سويلم، ضمن كتاب (الإبداع الأدبي للطفل)، يسطرون للطباعة والنشر، ط ٢٠١٥.
- طفلك يا سيدتي: كتاب الشعب ١٠١، الصادر في ١٩٦٠، ٢٠٠٨.